الفصل الخامس

تصور اجتماعي حديث لتجربة تحريم الخمر والدروس المستخلصة منها

oberkandl.com

تصور اجتماعي حديث لتجربة تحريم الخمر والدروس المستخلصة منها

الآن، وبعد أن أكدنا أهمية الإيمان بوصفه العامل الأساسي للإقلاع عن المسكرات، نرجع إلى استنباط أوفى لبعض العوامل الاجتماعية التي ساعدت في إحداث هذا الانقلاب المبارك، ويستطيع المرء في هذا المضمار أن يتفكر في كثير من هذه العوامل التي وضعتها الدراسات الاجتماعية والحضارية والنفسية الاجتماعية الحديثة، ولعل أول ما يتبادر إلى الذهن في هذا المجال التأثير الروحي والاجتماعي والنفسي لشخصية الرسول ﷺ القيادية ومكانته العالية المقدسة كقدوة ومعلم وإمام لجماعة المسلمين في المدينة المنورة.

ولاشك أنّ مكانة الرسول ﷺ سيد الأنبياء والمرسلين وقدرته على جمع قلوب أشتات القبائل المتنافرة وإعادة صياغتها بوحي الله تعالى وتوفيقه لا يمكن إخضاعها كلية لمفاهيم الدراسات الاجتماعية والإنسانية الحديثة. فكما ذكرنا من قبل، أنّ هذه الدراسات سجنت نفسها بين جدران تصور مادي للإنسان؛ لذلك فإنّ كثيراً من الكتابات التي نظرت إلى سيرة المصطفى ﷺ من خلال مفاهيم العصر "كمصلح اجتماعي" أو "بطل" أو "قائد ملهم" لم تفِ الإسلام حقه ولم تعطِ النبوة قدرها فكأنهم في ذلك كالذي يحاول الإحاطة بالجَمَل من خلال

سم الخياط! ذلك أنّ شخصية الرسول ﷺ، حتى بالمقاييس التي وضعها علماء الغرب لا يمكن مقارنتها بشخصية أي قائد عظيم أو بطل ملهم.

ويحضرني في هذا المجال الكتاب القيم الذي ألفه الدكتور "مايكل هارت"، الفلكي والمؤرخ وأحد كبار العلماء الأمريكيين في الفيزياء التطبيقية، بعنوان "**المائة الأوائل**"، الذي قام فيه بدراسة وافية متجردة للشخصيات العالمية التي أثّرت في التاريخ الإنساني واستخرج في هذه الدراسة الدرجات التي حصل عليها كل عظيم من العظماء استناداً إلى معايير دقيقة وضعها مسبقاً، وبعد اكتمال الدراسة وجمع الدرجات فوجئ المؤلف بأنّ صاحب أعلى درجات هو الرسول محمد ﷺ فوضعه أعظم المائة الأوائل، ونرى المؤلف وهو مسيحي يكتب للعالم الغربي، يقدم التبرير تلو التبرير ليوضح للقارئ الأوروبي أسباب اختياره لمحمد ﷺ كأعظم عظماء التاريخ، فيقول ما ترجمته:[1]

"لقد اخترت محمداً ﷺ في أول هذه القائمة، ولا بد أن يندهش كثيرون لهذا الاختيار... لكن محمداً (ﷺ) هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحاً مطلقاً على المستوى الديني والدنيوي. وأكثر الذين اخترتهم قد ولدوا ونشأوا في مراكز حضارية ومن شعوب متحضرة سياسياً وفكرياً إلا محمداً ﷺ فهو قد ولد سنة 571 ميلادية... في منطقة متخلفة من العالم القديم بعيدة عن مراكز الحضارة والثقافة...".

---

(1) "الخالدون المائة أعظمهم محمد رسول الله ﷺ"، تأليف مايكل هارت، ترجمة أنيس منصور، المكتب المصري الحديث، الطبعة الخامسة 1984، ص 13-19.

ويمضي الدكتور هارت قائلاً: "... استطاع الرسول لأول مرة في التاريخ أن يوحّد بين "القبائل العربية"، وأن يملأهم بالإيمان وأن يهديهم جميعاً بالدعوة إلى الإله الواحد، ولذلك استطاعت جيوش المسلمين الصغيرة المؤمنة أن تقوم بأعظم غزوات عرفتها البشرية... استطاع هؤلاء البدو المؤمنون بالله وكتابه ورسوله أن يقيموا إمبرطورية واسعة ممتدة من حدود الهند حتى المحيط الأطلسي، وهي أعظم إمبرطورية أقيمت في التاريخ حتى اليوم".

ويقول كذلك: "... وربما بدا شيئاً غريباً حقاً... أن يكون الرسول محمد ﷺ في رأس هذه القائمة... بينما عيسى عليه السلام هو رقم 3 وموسى عليه السلام رقم 16 لكن لذلك أسباب: من بينها أنّ الرسول محمد ﷺ هو المسؤول الأول والأوحد عن إرساء قواعد الإسلام وأصول الشريعة والسلوك الاجتماعي والأخلاقي وأصول المعاملات بين الناس في حياتهم الدينية والدنيوية".

وكان الرسول ﷺ -كما يسجل الدكتور هارت- "على خلاف عيسى عليه السلام (قدوة في المسائل الدنيوية) فكان زوجاً وأباً... وكان يحارب ويصاب في الحروب... ولما كان الرسول ﷺ قوة جبارة، فيمكن أن يقال أيضاً أنّه أعظم زعيم سياسي عرفه التاريخ... وإذا استعرضنا التاريخ... فإننا نجد أحداثاً كثيرة من الممكن أن تقع دون أبطالها المعروفين، ولكن من المستحيل أن يقال ذلك عن البدو... وعن العرب عموماً وعن إمبرطوريتهم الواسعة، دون أن يكون هناك [محمدﷺ]"... (انتهى النص)[2].

---

(2) الترجمة لأنيس منصور، مصدر سابق.

أكتفي بهذا القدر لتوضيح أهمية القدوة المحمدية المباركة على المجتمع الإسلامي الأول بشأن تحريم الخمر، وإذا استحضرنا الفارق الكبير بين القدرة النبوية المؤيدة بالوحي وبين تلك التي يمثلها القادة والأبطال العاديون، فإننا سنجد في علم الاجتماع والتاريخ والدراسات الإنسانية والنفسية تأكيداً واضحاً لدور "القائد" و"البطل الملهم" في التغيير الاجتماعي الأخلاقي والحضاري لأمته.

ولعل أكثر الاجتماعيين تركيزاً على هذا الدور العالم "ماكس فيبر Max Weber" الذي أقام نظريته في التغيير الاجتماعي على أساس العقائد والقيم السائدة في المجتمع. وربما كان "فيبر" هذا من أكثر المنظّرين في علم الاجتماع إنصافاً لدور الدين والعوامل غير المادية في التغيير الاجتماعي، فأكد في غير موضع من كتاباته أنّ المعتقدات الدينية هي أهم القوى تأثيراً في التشكيل الحضاري والاجتماعي، حتى أنه عزا أعظم التغييرات والتقلبات الاجتماعية في تاريخ الإنسان للديانات العالمية الكبرى.

ومن شدة اهتمامه بآثار المثل الدينية نجده يأتي بتفسيرات لا تخطر عادة على أذهان علماء الاجتماع والحضارة المحدثين، فهؤلاء لغلبة التصورات المادية على أفكارهم، كثيراً ما يؤكدون على العوامل الاقتصادية والمادية، بل ويفسرون بها جميع التغيرات الاجتماعية والروحية والأخلاقية الأخرى.

أما فيبر فعلى العكس من ذلك، نراه مثلاً يعتبر العامل الأساسي لنجاح الرأسمالية في أمريكا وإنكلترا هو المثل والقيم الدينية لطائفة

البروتيستانت التي سادت وتسود في تلك الدول والتي تشجع العمل الدؤوب وتوفير المال والاهتمام بالملكية الفردية[3].

فإذا كان هذا موقفه من تأثير الأديان في التغيير الاجتماعي، فمن المتوقع أن نجد أنّه ركّز أيضاً على أهمية "النبي" و"القائد الروحي الملهم" في إحداث هذا التغيير، وأطلق فيبر اصطلاح الموهبة Charisma على الخاصية التي تجمع هؤلاء القادة. ويعتقد فيبر أنّ معظم أتباع هؤلاء الموهوبين هم من الأشخاص الذين يعيشون في حالة من الضنك والكرب، فهم في حاجة ماسة إلى الأمل المشرق الذي يبشر به القائد الملهم ذو المؤهلات الخارقة.

ويتمكن القائد الملهم -حسب تصور فيبر- من إحداث التغيير الاجتماعي بصياغة مُثله وأفكاره في قوالب وأنماط سلوكية للحياة اليومية ويصب سلوك أتباعه في هذه القوالب[4] التي بشر بها القائد وأهمية العوامل الاجتماعية الأخرى. ذلك أنّ بعض المؤرخين وعلى رأسهم "توماس كارليل Thomas Carlyle" تحمسوا لدور "القائد الملهم" في تفسير التاريخ الإنساني بتطرف واضح أهمل دور العوامل الاجتماعية والحضارية الأخرى حتى أضحى التاريخ بالنسبة لهم وكأنه سلسلة من السِيَر الذاتية لحياة هؤلاء الأبطال القادة. وهذا تطرف واضح، فكما هو معلوم، فحتى الأنبياء -صلوات الله عليهم أجمعين-

---

(3) Max weber, The Protestant Ethic and the spirit of capitalism, Charles Scribner's Sons, New York, 1958.

(4) محمد فؤاد حجازي، "التغيير الاجتماعي"، مكتبة وهبة، القاهرة، 1987م.

يسخّر الله لهم من الرجال والحواريين ومن الظروف البيئية والحضارية والاجتماعية التي تساهم في نشر دعوتهم وتغيير مجتمعهم.

أما في علم النفس الاجتماعي فنجد دراسات مستفيضة حول أهمية القيادة في التأثير والتغيير الاجتماعي كما نجد أبحاثاً مختبرية وميدانية تهدف للتعرف على أهم خصائص وصفات القائد الناجح، وقد اهتم علم النفس الاجتماعي في البدء بمحاولة التعرف على السمات الدقيقة المحددة المميزة للقائد بالمقارنة بشخصيات الأتباع، لكن هذا الأسلوب لم يأتِ بنتائج محددة،[5] بل أتت الدراسات بصفات أكثر عمومية، وهذه الصفات والخصائص رغم محدوديتها تشير إلى كثير من الصفات الأخلاقية التي فطر عليها الأنبياء كالاهتمام بالأتباع والحرص على تفهم مشاعرهم والود واللين لهم وتوضيح وتأكيد الالتزام بنظام الجماعة والسير بها نحو تحقيق أهدافها. نكتفي بهذا القدر عن أثر القيادة والقدوة النبوية.

ومن العوامل الاجتماعية الهامة التي ساعدت في القضاء على الاعتماد على الخمر وإدمانها في المدينة المنورة؛ الاهتمام بقضية الإجماع Consensus. فكثير من الدراسات الاجتماعية والحضارية الحديثة تؤكد على هذا العامل المؤثر في إنجاح الانصياع الاجتماعي[6]. فعندما تُعطى الجماعة فرصة كافية لتكوين رأي عام في قضية معينة حتى يفرض هذا الرأي نفسه على الغالبية العظمى من الأفراد، فإنّ الإنصياع يتم

(5) W. Deaux, Social Rsychology in the Eighties, Brooks Cole, Los Angeles, 1981.

(6) S. Asch, Social Psychology, Prentice-Hall, 1952

بنجاح وإن أدّى إلى تغير اجتماعي كبير كانت الجماعة سترفضه حتماً لو لم تعطَ هذه الفرصة الكافية ليتم هذا الإجماع.

ولا نحتاج إلى كثير نقاش لهذا الموضوع إذ يبدو جلياً من التدرج المتمهل في تحريم الخمر أنّ الإسلام إنما أراد أن يحقق استجابة إيجابية جماعية للحملة التي قام بها، وفي الحقيقة- كما مرّ بنا- كان التحريم متمهلاً إلى الدرجة التي استبطأ بعض المسلمين مثل عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- المراحل التدريجية التي حرّمت بها الآيات القرآنية شرب الخمر تحريماً قطعياً وسدّت منافذها.

وهناك عامل اجتماعي ثالث أكّدت عليه كثير من الأبحاث الحديثة ربما كان له تأثير كبير على هذه الاستجابة الجماعية للتحريم ألا وهو التماسك الاجتماعي Social Cohesion ويذهب أحد علماء الاجتماع المشهورين إلى حدّ القول بأنّ "التغييرات في الآراء والاتجاهات... يمكن إحداثها في الجماعة فقط عن طريق القوى المؤثرة على بقاء الأعضاء في هذه الجماعة"(7).

إذن فالتماسك والارتباط بين أفراد الجماعة هو أهم العوامل التي تسمح بالتغيير الاتجاهي وتهيئ الجو لقبوله، فكلما ازداد هذا التماسك، ازداد مدى التأثير الذي يمكن أن تحدثه الجماعة في قيم أفرادها ومعاييرهم.

وتؤكد جميع الدراسات الاجتماعية والحضارية الحديثة أنّ الدين من أهم قوى التماسك في المجتمع، بل إنّ كثيراً من علماء الاجتماع يعتبر أنّ

(7) L. Festinger, as Quoted by Malpaa, op. cit, p. 171.

التماسك الاجتماعي هو أهم وظائف الأديان[8]، وحتى المتطرفين منهم في اتجاهاتهم السلبية نحو الدين لم يستطيعوا أن ينكروا هذه الميزة، ولكن بعضهم مثل "أميل دروكايم Durkheim" جعلها الوظيفة الوحيدة للدين[9].

إذا كان للتماسك الاجتماعي كلّ هذه الأهمية بالنسبة للتغيير الاجتماعي، وإذا كان الدين بشكل عام هو من أهم عوامل هذا التماسك، فما هو إذن دور الإسلام في إحداث التماسك الاجتماعي الذي هيأ بدوره لمعجزة الامتناع الجماعي بعد تحريم الخمر؟

لا يوجد مجتمع عاش على ظهر هذه الأرض استطاع أن يداني المسلمين في عصر النبوة في قوة التماسك الاجتماعي والتراحم والتواد فيما بينهم. يستوي في تقرير هذه الحقيقة علماء المسلمين وغيرهم من المؤرخين من غير المسلمين.

إنّ الدارس لأسس ظاهرة التماسك الاجتماعي في الإسلام يجد جذورها في التربية المبكرة في الأسرة المؤمنة، فالإسلام يربط المؤمنين وأطفالهم في البيت الواحد برباط الحب والبر والسكن:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم:21].

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا

(8) D. Popenoe, Sociology, Appleton, N.Y. 1971

(9) Ibid

قَوْلاً كَرِيماً . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ [الإسراء:23-24].

وينتقل بعد ذلك للأقارب فيحض على صلة الأرحام حتى ليجعل الرحم مشتقة من الرحمن، يصل الله مَن وَصَلَها ويقطع من قطعها، فعن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: «**أنا الله، وأنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتَتُّهُ**»[10].

كما يجعل قطع الأرحام صنواً للفساد في الأرض... قال تعال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد:22].

كذلك يحبب الإسلام في التكافل والبر بالضعفاء واليتامى والمساكين حتى ليقول الرسول ﷺ: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا. وأشار بالسبابة والوسطى**»[11]. ويقول ﷺ: «**الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله**... وأحسبه قال كما (ذكر أبو هريرة راوي الحديث) **وكالقائم لا يفتر والصائم لا يفطر**»[12].

وتنداح دائرة التعاضد والتماسك والبر لتشمل الجيران وأبناء السبيل: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ

---

(10) الحديث رواه الترمذي وأبو داود.

(11) رواه البخاري والترمذي وأبو داود.

(12) رواه الشيخان.

بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾ (النساء:36).

حتى ليدخل في هذا الإطار الجيران من غير المسلمين، فقد روي عن ابن عمرو بن العاص أنّه ذبحت له شاة في أهله، ولما جاء قال: "أهديتم لجارنا اليهودي؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنّه سيورِّثه**»[13].

وتنداح الدائرة بعد ذلك لتشمل المؤمنين جميعاً حتى لا يكتمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ولا شك أنّ من أبلغ الأمثلة على التماسك الاجتماعي الإسلامي والبر في ذلك المجتمع الطاهر ما كان قد حدث بين الأنصار والمهاجرين. فقد آخى النبي ﷺ بين كلّ فرد من المهاجرين وأخيه من الأنصار، ويحكي لنا تاريخ هذه الفترة الكثير من القصص الرائعة عن الإيثار والتضحية التي لم يشهدها تاريخ البشرية من قبل ولا من بعد والتي تشهد بأن هذه الأخوة الجديدة كانت أعمق أثراً وإخلاصاً من أخوة الدم. لقد بادر الكثير من أغنياء المدينة باقتسام أموالهم مع إخوانهم من فقراء المهاجرين، كما تخلى الأنصار عن نصيبهم من الأموال العامة لفقراء المهاجرين، وقد خلّد القرآن الكريم هذه الإخوة في الآيات البيّنات التالية:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ *

---

(13) رواه أبو داود والترمذي.

وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:8-9].

يعلق الشهيد سيد قطب على هذه الآيات في "ظلاله"، فيقول: "هذه صورة وضيئة صادقة تبرز أهم الملامح المميزة للأنصار، هذه المجموعة التي تفردت بصفات، وبلغت إلى آفاق، لولا أنها وقعت بالفعل، لحسبه الناس أحلاماً طائرة ورؤى مجنحة ومُثلاً عليا قد صاغها خيال محلّق..".

"﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.. لم يعرف تاريخ البشرية كله حادثاً جماعياً كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين، بهذا الحب الكريم، وبهذا البذل السخي.. حتى ليروى أنه لم ينـــزل مهاجر في دار أنصاري إلا بقرعة لأنّ عدد الراغبين في الإيواء المتزاحمين عليه أكثر من عدد المهاجرين".[14] (انتهى كلام الشهيد سيد قطب).

إذاً؛ فحق لهذا المجتمع المتعاضد الطاهر أن يوصف بعد ذلك بحديث المصطفى ﷺ بأنّه كالبنيان الذي يشد بعضه بعضاً،[15] أو كالجسم الذي إذا مرض فيه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى،[16] وهذا لعمري أبلغ وصف للتماسك الاجتماعي بمفهومه الحديث.

---

(14) سيد قطب، "في ظلال القرآن" ج 8، مصدر سابق، ص 40.

(15) الحديث رواه الشيخان والترمذي.

(16) الحديث رواه الشيخان.

وفي هذا الجو المفعم بالأخوة والإيثار تبدو مشكلة الإقلاع الجماعي عن الكحول ميسورة بسيطة؛ فالمؤمنون استطاعوا أن يتغلبوا على عصبية القبيلة والدم حتى ليقتل أحدهم أباه الكافر في سبيل رفعة جماعته الإسلامية وفيها الرومي والحبشي والفارسي، أفيصعب عليه بعد ذلك أن يتغلب على إدمان شراب لعنه الله ورسوله؟ وإن كان الأنصاري ينـــزل لأخيه عن نصف ماله أفلا يعينه على تحمل أعراض الانقطاع والابتعاد عن الكحول حتى يشفى من إدمانه؟

في الحقيقة كان الأمر أعظم من ذلك بكثير، فبعد التحريم القطعي للخمر كان للإدمان الذي انبثقت منه هذه الإخوة والتعاضد الإسلامي دور فاق كلّ تصورات أهل الدراسات الاجتماعية الحديثة ذلك لأنها أخوة خرجت من إسار الزمان والمكان والدنيا الفانية. فلم يكتفِ المؤمنون في العصر النبوي بجهاد النفس ومساعدة الإخوان والصحاب في مجالدة سيطرة الخمر على مجتمعهم حتى تطهرت المدينة بأكملها من رجسها، بل إنّهم وبعد أن اطمأنوا بهذه النتيجة تملّكهم الإشفاق والحسرة على إخوانهم في الدار الآخرة الذين ماتوا أو استشهدوا والخمر برجسها ودنسها في بطونهم لأنها لم تكن قد حرّمت بعد، فجاءوا النبي ﷺ يسالون عن مصيرهم، فخلد القرآن الكريم ذلك في آيات تتلى:

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة:93]. فوضّحت الآية أنّه لا تحريم بلا نص ولا عقوبة بلا نص ولا تحريم بأثر رجعي، فالذين ماتوا واستشهدوا

والخمر في بطونهم ليس عليهم جناح فهم لم يرتكبوا معصية قبل التحريم.

إذن فإن كشفت لنا الدراسات الإنسانية والاجتماعية الحديثة ما للتماسك الاجتماعي من دور فعال في تغيير معايير الجماعة واتجاهاتها فإنما يكشف لنا ذلك عن عظمة الإسلام كأسلوب شامل للحياة وللإيمان وكمحرك للطاقات النفسية والروحية في إعادة صياغة المهاجرين والأنصار في المدينة المنورة؛ ذلك بأنّ نجاح التماسك وجميع العوامل الاجتماعية الأخرى في القضاء على الخمر ليس إلا انعكاساً صافياً في مرآة الحياة لأثر الإيمان العميق في النفوس.

أمّا موضوعنا الأخير في هذا التحليل الاجتماعي والنفسي فهو أثر الإعلان والدعاية في اتجاهات الأفراد واستخدامها في مكافحة المسكرات، ولا نحتاج في التأكيد على أهمية هذا الموضوع إلى سرد نتائج الأبحاث النفسية والاجتماعية الحديثة التي تبرز آثاره الجلية، فهذا أمر قد أصبح من مسلمات هذا العصر الذي يلعب فيه الإعلان دوراً رئيسياً في اختيار كل شيء، من رؤساء الجمهوريات إلى صابون الشامبو!

ولا أريد أن أبدو سطحياً عندما أؤكد أنّ الرسول ﷺ قد استخدم الإعلان وعن وعي شريف في الدعاية لتحريم الخمر، وذلك في المسيرة المباركة التي انتهت بشق الزقاق وتحطيم القدور في بقيع محدد بالمدينة المنورة، فقد نـــزلت آية التحريم النهائي وتناقلها المؤمنون في سرعة مذهلة حتى عمت المدينة المنورة في وقت قصير. وكان من الممكن

الاكتفاء بذلك وبتفاصيل الحديث الشريف المشهور[17] الذي فصّل التحريم، لكنه ﷺ أراد أن يكون لهذا التحريم إعلانه اللائق بجلاله، فبعد نـــزول آية التحريم القطعي طلب الرسول ﷺ من الناس أن يحضروا له ما عندهم من خمر، حيث قال ﷺ وهو محتبٍ في مسجده: «**من كان عنده من هذه الخمر شيء فليأتنا بها**». ثم طلب منهم أن يجمعوها في بقيع معين بالمدينة المنورة، ثم سار في جمهرة من أصحابه إلى ذلك البقيع الذي تجمع فيه الناس بما عندهم من خمر، حتى إذا وقف على الخمر قال للناس: «**أتعرفون هذا؟**» قالوا: نعم يا رسول الله، هذه الخمر، قال: «**صدقتم**»، ثم أعلن بعد ذلك تفاصيل التحريم في حديثه المشهور، ثم دعا بسكين حاد فمزق به الزقاق بيده الشريفة واندلق ما فيها من خمر معتق لتمتصه أرض البقيع الحارة، وعلى مشهد من الجماعة المؤمنة التي ازدحم بها البقيع.

بمقايس العصر ربما لا نجانب الحق إن قلنا إنّ هذا كان أعظم استخدام للإعلام وفيه سُنّة واضحة للاستفادة من كل الأساليب الإعلامية الحديثة التي لا تخرج عن الإطار الإسلامي في الدعاية لمنع الخمر ومكافحته وفي المسائل الدينية الأخرى.

ومن ثم: فإذا كان الدراسات الإنسانية والاجتماعية الحديثة تؤكد أنّ عوامل القيادة والقدوة والتماسك الاجتماعي والإجماع والإعلام لها كل هذا القدر الكبير في تغيير اتجاهات الجماعة وقيمها وفي إحداث

---

(17) الحديث رواه ابن عمر وقد نقلناه بتفصيله آنفاً.

الانصياع لتعاليم الجماعة، فباستطاعة المرء من خلال هذه المفاهيم الحديثة أن يتبين أسباب تمكّن المسلمين في دولة المدينة المنورة من تحقيق هذه الاستجابة الجماعية الرائعة لتحريم الخمر.

ويمكننا أن نتعلّم الكثير من الدروس المهمة من هذه التجربة المباركة، فمن الواضح أنّ انتشار الخمر وإدمانها لا يمكن معالجته بإصدار قوانين التحريم والمنع قبل الاضطلاع بمعالجة الأسباب النفسية والاجتماعية والاقتصادية والروحية الكامنة وراء ذلك. فإنّ الاستعمال بسنّ قوانين المنع والتحريم والعقاب قبل أن تتهيأ الجماعة لذلك قد لا يأتي بالفشل الذريع في تحقيق الإقلاع عن شر بالخمر فحسب، بل قد يساعد كذلك على تفاقم الوضع وربما يزيد من استهلاك الخمر رغم ارتفاع أسعارها الناشئ عن السوق السوداء حينئذ.

ولعل فشل الحملة الأمريكية في تحريم الخمور خير مثال على ذلك، فيذكر المؤرخون والاجتماعيون أنّ منع المشروبات الكحولية جاء مفاجئاً وهزّ أركان الولايات المتحدة كما لم يحدث من قبل إلا عند منع الرّق في أوساط القرن التاسع عشر[18].

ولا شكّ أنّ علاج الإسلام لموضوع الرقّ هو الآخر من الظواهر التي استخدم فيها التدرج وعلاج الجذور النفسية والاجتماعية والروحية بأسلوب معجز يجعل كل ذي بصيرة يجزم بأنّ هذا الشرع هو من عند الله تبارك وتعالى خالق الإنسان والعالم بأسراره النفسية والاجتماعية.

---

(18) Encyclopaedia Britannica, Vol. 18, William Benton Publishers, London, 1963

وأنّ عدم الأخذ بهذه السنن هو الذي جعل أمريكا حتى اليوم تشكو من التفرقة العنصرية وهي الوليدة الشرعية لرقّ الأمس، لكن هذا ليس بموضوعنا الآن.

صدرت قوانين منع المشروبات الكحولية في يوم 16 شباط/ فبراير 1919 على أن يبدأ العمل الفعلي بها بعد عام واحد فقط، وكان من ضمن فقرات المنع تحريم تصنيع الخمر وبيعها ونقلها، واستمر العمل بهذه القوانين 14 سنة كاملة إلا أسابيع قليلة أعلنت الحكومة بعدها فشل المنع وانتهى العمل بالقانون في الخامس من كانون الأول/ ديسمبر عام 1933[19].

ورغم أنّ موضوع مضار الخمر والدعوة لتحريمها كان قد استمر بين أخذ ورد وتأييد ومعارضة فترة طويلة قبل المنع النهائي، إلا أنّ ذلك لم يكن تهييئاً للشعب الأمريكي ليتعاون مع حكومته في هذا الأمر الخطير، فلم يأت المنع ليتوج مجهودات طويلة من التدرج الواعي والتربية الخلقية والروحية والتهيؤ الاجتماعي بل جاء مفاجئاً ليضع حداً للبلبلة السائدة حينذاك.

لقد اتفقت اللجان المختلفة التي كُوّنت لدراسة أسباب فشل المنع أنها تكمن في الجوانب الاجتماعية والتربوية والروحية، وأنّ الاستعجال في تطبيق قوانين فوقية لم يولد التجاوب النفسي في الأمريكيين، فقد ذكرت إحدى هذه اللجان الرسمية "أنّ الحكومة لم تقم بالواجب التربوي والتنويري للشعب قبل المنع"[20]، كما أكدت أنّ "القوى

(19) Ibid

(20) Ibid

الاجتماعية والاقتصادية هي التي كانت وراء فشل المنع، لا القوى الأخلاقية والقانونية[21].

وذكرت لجنة أُخرى أنّ عدم استثارة الجوانب الأخلاقية والروحية كان من أهم أسباب الفشل، وأنّه خلال فترة سريان قانون المنع زادت نسبة تهريب الخمر وارتفع دخل الأفراد العاملين بالسوق الأسود. كما ارتفعت نسبة تعاطي المشروبات الكحولية لدى الشباب الصغار السن وانتشر لديهم اتجاه خطير بتحدي القوانين[22].

ولعل أخطر نتائج فشل المنع المتعجل هو تخوف الشعوب في مستقبلها من تكرار التجربة حتى ولو قامت على أسس سليمة، فيصعب بعد ذلك جداً أن تقنع المجتمع بأسباب فشل المحاولة الأولى الدخول في تجربة جديدة. ذلك أنّ الكحول مارد جبار، إذا ثَبّت أقدامه في مجتمع ما بسط سلطانه "الأخطبوطي" على جميع الجوانب العضوية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية للجماعة. فنجد كل زمرة منهم، سواء أكانت من المعتمدين والمتعاطين للكحول أو من العاملين في مصانع إنتاجه أو بائعيه أو زارعي فاكهته أو المستفيدين من ضرائبه والإعلان عنه أو ناقليه، كل هؤلاء وغيرهم من المستفيدين يتذرعون بفشل الحملة الأولى ولا يذكرون إلا الجوانب السلبية منها، بل ويرفضون أي محاولة للحد من انتشار الخمر حتى ولو ظهرت مضارها الجسمية في أبشع صورها. فالكحول اليوم يعتبر مشكلة أمريكا الأولى بلا منازع. فيذكر مكونيل

---

(21) Ibid.

(22) Ibid.

Mc Connel معتمداً على إحصاءات المعهد الأمريكي للإدمان، أنّ في أمريكا اليوم حوالي ستة ملايين مدمن من بين الخمسة وسبعين مليون محتس للخمر، يموت منهم سنوياً اثنا عشر ألفاً من الإدمان المزمن، كما يقتل سنوياً 25000 بسبب حوادث سائقي السيارات السكارى.[23]

أما كولمان Colman فيذكر في إحصائية أكثر حداثة أنّ الكحول وراء نصف جرائم القتل العمد و40٪ من حوادث الاعتداء الجسمي و35٪ من جرائم الاغتصاب و30٪ من حوادث الانتحار، وأنّه يكلّف الولايات المتحدة ما لا يقل عن 25 بليون دولار سنوياً بسبب الحوادث وتكاليف العلاج والتغيب عن العمل.[24]

بل إنّ خطر فشل التعجل في المنع الشامل للخمور وسَنّ القوانين الفوقية قبل أن يتهيأ المجتمع لذلك قد يتعدى حدود القطر الذي فشلت فيه التجربة ليصد بعد ذلك عن المنع الواعي المتدرج في بلاد أخرى. فكثير من كُتّاب أوروبا اتخذوا من فشل التجربة الأمريكية سبباً في استمرار نفوذ الأخطبوط الكحولي على دولهم، ومن عجب أننا نسمع أحياناً ترديد الحجج نفسها ضد تحريم الخمر في بعض أقطارنا الإسلامية!

وفي الحقيقة فإنّ مسألة التدرج وتهيؤ المجتمع لا يمكن نقلها بكل تفاصيلها عبر البيئات والحضارات المختلفة، فإنّ المجتمع كلما تعددت قومياته واتسعت أراضيه احتاج إلى وقت أطول وإلى مجهودات أكبر في

---

(23) J.Mc Connel, Understanding Human Behaviour, Holt, Rinehart and Winston, N.Y. 1977.

(24) J. Coleman, et. Al, Abnormal Psychology and modern life, Scott, Foresman Co., London, 1984.

تهيؤ أبنائه حتى تنضج عوامل الإجماع والتماسك وحتى يصبح المنع والإقلاع رأياً عاماً سائداً تسنده الدوافع الأخلاقية والروحية للشعب بشكل عام. أما الشعوب التي لها رصيد حضاري ديني وأخلاقي في منع المسكرات وتحريم الخمر فلا تحتاج إلا إلى وقت بسيط لتهيئ المجتمع للمنع الكامل والتحريم الجازم إن كانت حملة مكافحة الخمر جادة.

ومن المؤكد أنّ الشعوب الإسلامية اليوم هي الأكثر استعداداً لهذا التحريم الشامل لما لها من رصيد روحي وأخلاقي في هذا الشأن، ولا يعني ذلك بالطبع أنها لا تحتاج إلى تهيؤ أو تدرج، لكن التدرج هذا قد يصبح كلمة حق يُراد بها باطل. ذلك أنّ المعتمدين على الكحول والذين أدمنوا تناوله أو الاعتياد عليه بالإضافة إلى أولئك الذين اعتمدوا عليه اقتصادياً يستخدمون مبدأ التدرّج وأهمية التربية الروحية والخلقية لتأخير المنع أو حتى القضاء عليه، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من المعتمدين على الكحول في العالم الحديث، حتى أنّ بعضهم ليستشهد بالتحريم الإسلامي المتمهل على عهد الرسول ﷺ لتعضيد مقولته!.

ومع إعادة تأكيدنا على مبدأ التدرج والتهيؤ الواعي للمنع والتحضير مسبقاً لعلاج المدمنين من المسلمين إلا أننا نؤكد أنّ التدرج إذا لم يكن جاداً يصبح تباطؤاً، والتربية الروحية المزعومة قد تصبح هروباً من مواجهة الواقع الكحولي الأليم، والاستشهاد بالتجربة الإسلامية الأولى مراوغة، فلا يمكن أن نعيد عقارب الزمن ونقدم آيات التحريم التدريجي القرآنية من جديد، إن الخمر قد حرمت البتة سد الإسلام جميع منافذها

وشرعت لها الحدود. وليس هناك ما يمنع من أن تستمر التربية والتوعية والتوجيه الإيماني مع المنع التدريجي، وكلّ جانب يشد من أزر الآخر.

ومما يعضد ذلك النجاح المتفاوت للتجارب الحديثة لمنع الخمور في البلاد الإسلامية دون تدرج أو تمهل أو تهيؤ يُذكر ما حدث مثلاً في ليبيا والسودان وإيران مع تطبيق لحد الشرب في بعضها، وقد تم المنع في السودان على عهد النميري في ظروف كان من الممكن أن تتضافر لإفشاله، فجاء مرتبطاً بقوانين الطوارئ، وفي أوضاع اقتصادية سيئة للغاية، ومن قِبل حاكم عسكري أبغضه الصغير والكبير، رغم ذلك كانت نتائج المنع وتطبيق حد الشرب طيبة إلى حد كبير، قُفلت البارات وحانات الخمر، واختفى منْظر السكارى المترنحين في الشوارع، والذي كان أمراً عادياً، وقلّت الحوادث والمخالفات المرتبطة بالسُكر كما أكّدت إحصاءات الشرطة، وتحسنت الأحوال الأسرية لكثير من الآباء المدمنين والمعتمدين على الكحول، والذين أقلعوا علن الشرب بمحض اختيارهم أو أولئك الذين أجبرتهم الظروف الجديدة على ذلك، وهذه النتيجة الأخيرة التي أقلع فيها المعتمدون على الكحول عن إدمانهم بسبب الضغوط التي فرضت عليهم تؤيد أبحاث العالم ميلام Milam[25] الذي أثبت خطأ الاعتقاد السائد بين النفسانيين في الغرب من أنّ المدمن يجب أن يطلب العلاج بنفسه أولاً حتى يستفيد من هذا العلاج، إذ وجد أنّ الغالبية العظمى من المدمنين يجبرون في بادئ الأمر على العلاج، وأنّ دوافعهم للاستمرار في العلاج تتحسن كثيراً عندما تبدأ

---

(25) J. Milam, op. cit, p. 45

حالتهم الجمسية والنفسية في التحسن الفعلي، أي أن تحمس المدمن للعلاج وللإقلاع عن الخمر يبدأ أثناء العلاج لا قبله.

ولا يفوتنا أن نذكر بهذه المناسبة أنّ المنع "الفاشل" لتداول الخمور وتصنيعها ونقلها وبيعها في أمريكا، والذي يحتج به الكثير من دعاة "التدرج الأبدي" لم يكن بلا فوائد، فقد جاء في تقرير المجلس الفدرالي للكنائس[26] المستخلص من دراسة ميدانية شاملة وزعت فيها استفتاءات على نطاق واسع، أنّه رغم جميع جوانب الفشل فإنّ الحالة الاجتماعية والاقتصادية للعمال الأمريكيين قد تحسنت بسبب المنع، وزادت الأموال التي تذهب لربات البيوت، وتحسنت الصلات الزوجية بشكل عام، كما يؤكّد تقرير الغرفة التجارية الأمريكية[27] أنّ الحالة الاقتصادية في أمريكا تحسّنت بشكل واضح أثناء فترة سنوات المنع.

نستنتج من كلّ ذلك أنّه إذا تضافرت للمجتمع المسلم ظروف التهيؤ المناسب مع استشارة طاقات الإيمان وهيمنة القيادة الصالحة، فإنّ القضاء على المسكرات فيه سيكون أمراً ميسوراً بإذن الله، فالإيمان هو الركن الشديد الذي تقوم عليه العوامل الاجتماعية والنفسية الأخرى في المجتمع المسلم، التي تساعد في عملية الإقلاع عن الخمر.

وهذا يقودنا إلى الدرس الثاني الذي نستخلصه من هذا التحليل الاجتماعي، ألا وهو: تأثير الدين في محاربة السكر وانتشار المشروبات الكحولية.

---

(26) Encycolopaedia Britannica, op. cit, vol. 18, p. 567-571.

(27) Ibid

ربما يقول قائل إنّ ما حدث في المدينة المنورة كان ظاهرة فريدة لا تتكرر في التاريخ الإنساني، لكن أهمية الإسلام وغيره من الديانات الأخرى فيما يتعلق بالحد من تعاطي المسكرات تظهر جلية واضحة حتى في عالمنا المعاصر المشوب بالمسكرات.

فيبدو أثر الدين واضحاً حتى في علاج المدمنين على الكحول من الأوروبيين والأمريكين الذين يلتجئون لجمعيات مكافحة وعلاج الإدمان التي تأثرت ببعض الجوانب الروحية والأخلاقية في المسيحية، ومن أشهرها على الإطلاق جمعية Alcoholics Anonymous التي أسسها Bill. w. الذي تأثر بدوره بأفكار الدكتور Buchman مؤسس جماعة التسلح الخلقي Moral Rearmament النصرانية. وقد اتصل Bill بالدكتور Bob وأسسا هذه الجمعية في عام 1935. وقد كان Bill مدمناً على الكحول وحاول التخلص من إدمانه عدة مرات من دون فائدة حتى استمع لتعاليم Buchman وفلسفته الدينية فساعده ذلك على التغلب على إدمانه، فاتصل بالدكتور Bob الذي كان جرّاحاً ناجحاً لكن الإدمان على الخمر كاد أن يقضي عليه، فساعده Bill على التخلص من إدمانه بنفس الأسلوب الذي طوره من أفكار Buchman، واتفقا على إنشاء هذه الجمعية التطوعية التي تقوم أساساً على مجهودات المدمنين السابقين، ووضعا سوياً الأسس الاثني عشر التي هي بمثابة العقد، الذي يجب على المدمن أن يتقبله، ولو بشكل نظري في بادئ الأمر حتى يتدرج في السلم العلاجي، بمساعدة أعضاء الجمعية من

المدمنين الذين تم شفاؤهم بالأسلوب نفسه. ويظهر الجانب الديني بوضوح في كل فقرة من هذه الخطوات الاثنتي عشرة.

فهي تبدأ باعتراف المدمن بأنه أصبح لا حول له ولا قوة في التغلب على مشكلة إدمانه على الكحول، وتطلب النقطة الثانية منه أن يقرر أنّه يؤمن بأن هناك قوة أكبر من إرادته تستطيع أن تمنحه الشفاء، ثم تتدرج النقطة الثالثة بأن تطلب من المدمن أن يتخذ قراراً بأن يترك مشيئته وحياته في رعاية الله "حسب مفهومه للإله". وتهتم النقاط السبع التالية باعتراف المدمن لنفسه ولربه بالأخطاء التي ارتكبها في حق الأقرباء والأفراد الآخرين وأن يطلب من الله الغفران وأن يساعده في إرجاع الحقوق لأهلها، وأن يعترف لهؤلاء الأشخاص بما ارتكبه في حقهم، ويرجع لهم ما اغتصب منهم، إلا إن كان ذلك سيؤدي إلى أضرار أبلغ لهم أو لذويهم، أما الفقرة الحادية عشرة فتؤكد على أهمية الصلاة والتأمل للاتصال بالله "حسب مفهوم المدمن للإله" عن وعي وإدراك.

والنقطة الأخيرة تطلب من الفرد بعد أن تغلب على مشكلة الإدمان ونبذ المشروبات الكحولية جملة واحدة، ووصل إلى ما وصل إليه من "اليقظة الروحية" بأن يقوم بالدعوة إلى غيره من المدمنين لأن يسلكون نفس السبيل الذي نجّاه من غياهب الإدمان.

كذلك نجد كتابهم "**الأساس**" يدرب الدعاة على الاعتماد الكامل على الله ويذكّرهم بأنّهم يحاربون "الكحول" وهو كما يذكر الكتاب، عدو ماكر محيّر قوي، لا يمكن التغلب عليه بدون مساعدة من هو أقوى منه، ذلك هو الله الذي بيده كل القوة والجبروت. وتؤكد الجماعة على

الدعاة أن يتحدثوا منذ البداية بصراحة مع المدمنين على الجوانب الروحية وعن خبراتهم الخاصة في هذا المجال حتى ولو كان ذلك من المدمنين الملحدين، فالمهم حسب تصورهم أن يؤمن المدمن في بداية الأمر أنّ هناك "قوة ما" أكبر منه تستطيع مساعدته وأنه مستعد لأن ينظف حياته من أدرانها، وألا يعتمد في هذا الشأن على زوجته أو أهله أو أيّ مخلوق آخر. وقد نجحت هذه الجمعية نجاحاً كبيراً في علاج الإدمان، تؤكد هذه الحقيقة كثير من الأبحاث الميدانية التي اتفقت على أن هذه الجمعية ومثيلاتها أحرزت نجاحاً يفوق بكثير من المدمنين على الكحول الذين يطلبون العون من هذه الجمعية هم من الذين فشلت هذه الأساليب الطبية والنفسية في علاجهم مما يؤكد أنّ الناحية الدينية والروحية هي التي أتت بهذا النجاح. يقول Coleman.[28]

إن المجموعات التي تعمل تحت مظلة هذه الجمعية قد زادت على العشرة آلاف، وزاد عدد الأعضاء على المليون، هذا بالنسبة لأمريكا وحدها، كما أنشئت عدة فروع للجمعية في أوروبا وبلدان أخرى.

أما أثَر الإسلام في عالم اليوم فلا يحتاج إلى برهان، إذ رغم مشاكل العصر وبُعد البلاد الإسلامية بشكل عام عن صفاء الإسلام ونقاء شرائعه، فإنّ نسبة المدمنين بينهم هي أقل ونسبة المقلعين الذين لا يقربون الخمر هي الأعظم بدرجة كبيرة. لكن أثر الدين بشكل عام يبدو جلياً حتى بالنسبة للنِّحَل الأخرى. ويبدو أنّ مجرد تربية الأطفال في مجتمع يدعو دينه إلى منع الخمر واعتبار تناولها أمراً مشيناً يكفي لتدني

(28) Coleman, op cit, p. 416

نسبة استهلاك المواد الكحولية في ذلك المجتمع حتى ولو لم تقم الحكومات بأي مجهود في مكافحة المسكرات. هذه حقيقة تسندها الإحصاءات بشكل يدعو للدهشة.

فالمسيحيون الأمريكيون من طائفة المورمون Mormons الذين يحرمون الخمر وجميع المخدرات والمنشطات الأخرى بما فيها الدخان والشاي والقهوة تنخفض عندهم نسبة الإدمان وتعاطي المسكرات بالمقارنة مع المجتمع الأمريكي بشكل يدعو للإعجاب[29]. نفس الظاهرة نجدها عند اليهود والأرثوذكس[30].

أما فيما عدا ذلك فنجد البلاد الغربية غارقة إلى أذنيها في الكحول، فالأوروبيون رغم أن تعدادهم لا يزيد على 15٪ من سكان الأرض يشربون حوالي نصف كمية الإنتاج العالمي من المواد الكحولية[31]. كذلك نجد نفس النسبة تقريباً في البلاد التي ليست لها جذور دينية مضادة للكحول، والتي تأثرت بالحضارة الغربية المادية مثل اليابان ونيوزلندة والأرجنتين. وفي إحصائية نشرت عام 1982 يؤكد العالم Barrey[32] أنّ استهلاك هذه البلاد الستّ بالإضافة إلى أوروبا وأمريكا يصل إلى 80٪ من كل إنتاج الأرض من الخمور، مع أنّ تعدادهم مجتمعين لا يزيد على 20٪ من سكان المعمورة.

---

(29) Kessel and Walton, op. cit, p. 411.

(30) Ibid.

(31) Coleman, op. cit, p. 411.

(32) Ibid.

هذه الإحصاءات وغيرها من الدراسات توضح بجلاء أثر الدين في محاربة المسكرات وتبين أثر التربية الدينية والتنشئة في تكوين الاتجاهات المضادة للسكر. فإذا كان للدين غير الموَجّه هذا الأثر العميق في بيئات متحللة كأوروبا وأمريكا، فكيف يكون الأثر إذا كان الدين هو الإسلام، وإذا كان المجتمع بحكامه ومحكوميه ومؤسساته وإعلامه يوحّد جهده لتنشئة الشباب على نبذ الخمور والمسكرات، وتطهير البلاد من أرجاسها وأنجاسها.

وقد يعجب المرء من أمّة لها هذا الرصيد الروحي والاجتماعي الطيب في مكافحة المسكرات والمخدرات؛ ترى قادتها ينظرون "يميناً" و"يساراً" يبحثون عن حلول لمشاكل التعاطي الإدمان في بلادهم الإسلامية، ويطبقون بعد ذلك النصائح المستوردة دون أدنى تعديل من بلاد فشلت في حل مشاكل إدمان أهلها أو حتى وقف الارتفاع الجنوني لمعدلات استهلاك الكحول والمخدرات فيها.

وفي الواقع أنّ أزمة انتشار المسكرات في كثير من البلاد الإسلامية المعاصرة هي أزمة قيادة وتماسك وقدوة، فإذا تأكد لنا مما سبق أنّ الدين من أقوى عوامل التماسك الاجتماعي، فكيف يكون هناك تماسك وتعاضد خارج إطار الإسلام؟... وإذا ضعف هذا التماسك فأنّى للمجتمع أن يبدل اتجاهاته التي اكتسبها من تقليد الحضارات الغربية والشرقية التي أصبحت المسكرات فيها من مظاهر التحضر والتمدّن؟... ثم إذا كان القادة أنفسهم من المعتمدين على الكحول فكيف يستطيعون التأثير على شعوبهم، وأي قدوة هذه التي يعرضونها على الناس؟...

وكيف يقيّم الناس خطب هؤلاء القادة الذين يلهجون بالآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة في تحريم الخمر في المناسبات الدينية وفي مؤتمرات مكافحة المسكرات التي يفتتحونها صباحاً بالخطب الإسلامية الرنانة ليحضروا حفلات "الكوكتيل" الراقية في مساء اليوم نفسه؟... وكيف توفق الشعوب بتنديد أولي الأمر "لأم الكبائر" ليشاهدوا وسائل الإعلام والإعلان في بلادهم تدعو بدعاية مناقضة، ظاهرة كانت أو مستترة؟

ولكن، وبالرغم من كل هذا التناقض وبالرغم من مساوئ الشعوب الإسلامية وانجرافها ظاهرياً وراء تيارات تعاطي المسكرات وما يصحب ذلك من تحلل أخلاقي، إلا أنّ البذرة الإيمانية الإسلامية تبقى كامنة راكدة في القلوب، فإذا تبدّلت الظروف وجاء القادة الذين يفجرون هذه الكوامن بالصدق والصلاح والتفاني، فإنها تتحول تحولاً مذهلاً يدهش الصديق والعدو، فأنّى لنا بهؤلاء القادة الذين يجعلون من أنفسهم قدوة "دينامية" صالحة تهوّن على الجماعة الإذعان لتحريم المسكرات والثبات على هذا الأمر؟

ولنعد بعد استخلاص هذه العبر والدروس إلى مدينة رسول الله ﷺ، فقد تركناها والمؤمنون قد استجابوا استجابة جماعية لا مثيل لها لأمر الله في اجتناب الخمر، وحطموا قدورها وتطهروا من دنسها، لكن معجزة الاستجابة للتحريم، وإن بَدَتْ عظيمة فهي لا تفوق معجزة الثبات على اجتناب الخمر بعد الشفاء من إدمانها أو الاعتماد عليها. كيف استطاع الإسلام تحقيق معجزته الثانية بحماية مجتمع المدينة المنورة من الارتداد في

حمأة السكر؟ ذلك ما سنناقشه في الفصل التالي بحول الله تعالى، محاولين استنباط العوامل الاجتماعية والنفسية والروحية التي حققت هذا الثبات العظيم.

obeikandl.com